الشعر المصرى فى مائة عام

الحالة السياسية والاجتماعية والفكرية

للأستاذ محمد سيد كيلانى

— ١ —

١٨٥٠ — ١٨٨٢

كان حكم محمد على بداية تحول فى تاريخ مصر الحديث . ففى عهده شرعت البلاد تأخذ بأسباب النهضة والتقدم ، واتصلت بأوربا وطفقت تستفيد من علومها وثقافتها .

ثم مات محمد على وخلفه عباس الأول (١٨٤٨ — ١٨٥٤) وفى عهده كادت تتلاشى بوادر النهضة التى خلقها جده الكبير .

ثم جاء سعيد (١٨٥٤ — ١٨٦٣) وكان يمتاز بحبه للمصريين وعطفه عليهم فأدخل بعض الاصلاحات الزراعية فلهجت الألسن بالثناء عليه ، ووجه عناية خاصة بالجيش فرفع مستواه ، وفرض التجنيد الاجبارى على جميع أفراد الشعب ، وفتح باب الترقى أمام أبناء الفلاحين ، واهتم بتزويد الجند بأحدث أنواع الأسلحة التى عرفت فى عصره ، وشيد القلاع والحصون . وقد ظهر أثر ذلك فى الشعر فأخذ الشعراء يمدحون سعيدا وينوهون بشجاعته وإقدامه ، ويشيدون بجيوشه وأسلحته وبقلاعه وحصونه . فمن ذلك قول السيد على أبى النصر :

هم جنود بل أسود بأسهم ... يتقيه كل جبـــار عنيد
أقسمت أسيافهم لو جردت ... يوم حرب لم تدع شخصا يحيد
والرماح اللدن أو مت بالظبا ... نافذات فى التراقى والوريد
كم لهم من بندق أبدى لنـا ... معجزات إذ له لان الحديد
كم لهم من مدفع آياته ... بينات لفظها لفظ مفيد
كم توالوا فوق خيـل ضمر ... سـابقات للقضا فيما يريد
لو أتت يوما على رغم العدى ... مرسلات غادرته كالحصيد
إذ عليها كل ليث ضيغم ... فى ملاقاة العدى برج مشيد

وقال السيد صالح مجدى مؤرخا بناء القلاع السعيدية بجوار القناطر الخيرية :

فأسس بالتقوى حصونا عديدة ... بثانى جمادى بعد إبداء دعوة
فى جانب الكبرى لاحت بروجها ... عليها مدار الأمن فى كل لحظة
ولما علت أركانها وتجهزت ... بما يدفع الأعداء عنها بهمة

الوحدة والضياع ، وأظل أنا هنا أحمل هم نفسى وهم أولادى ، أم أنطلق معهم فأنر الأفدنة ، وهى عدتى على الزمن القاسى ودريئتى من الفاقة العاتية ... أفرها يتناهبها الفلاحون وما فيهم إمعان ولا أمانة ؟ ثم قر قرارى فتركت الصبية يسافرون إلى القاهرة ... تركتهم بين يدى القدر .

« وجاءتنى رسالاتهم تترى فأحسست كأن كل رسالة تحمل فى طياتها أذى نفسى وضنى قلبى ، ثم جاءت رسالة تقول : « وقضينا الليلة الماضية فى حال من الفزع يفرق له الشجاع ، وفى رهبة من الرعب يخشع لها الأيد ، وفى رعدة من القر يرتاع لها الجليد . فلقد أحسسنا باللص يتسلق أنابيب المياه حتى أوشك أن ينقض علينا لولا أن ندت من أختى صيحة مضطربة طار من هولها اللص ، وتبدد من شدتها الأمان من قلوبنا ، وكانت لفحات القر القاسية تلفحنا فتكاد أطرافنا تتجمد من زمهريرها ، والريح زفزافة تئن أنينا تتخلع له أفئدتنا ، فلصق بعضنا ببعض مثلما يلصق أجراء بأمها فى ليلة قرة تلتمس الدفء والأمان . وعصف بنا الخوف فما غمضت أجفاننا حتى انطوى الليل وبزغت الشمس ...

« لشد ما أصابنى الجزع والذهول مما سمعت من كلام سفارى وهو يخز قلبى وخـزات قاسية عنيفة تقض مضجعى وتفزعنى عن القرار ! .

« وعنـد الصباح ودعت القرية لألحق بسفارى ، ورضيت بالشظف لأكفل لأفراخى الأمان والهدوء .

« وها أنا الآن كما ترى — ياصاحبى — أعانى عنت الحياة وضيق العيش وغلظة الأيام ، أفتر فى مهاوى الضياع ، تتعاورنى نوبات من الألم النفسانى فما يمسكنى إلا حب الولد — الولد الذى أطمع أن أراه رجلا يمسح على آلامى بيده الحبيبة ويزيح عنى أشجانى بكلماته الرقيقة ...

وسكت صاحبى ، وسكتُّ . وتلاقت خواطرنا وعبراتنا على حرقة وأسى ...

كامل محمود حبيب

وحصنت الأبراج منها مدافع تسوق إلى الثغور أثقل كلكل
تكفل من أبطال مصر بحفظها رجال لهم بطش وأعظم سطوة

هكذا مدح الشعراء سعيدا . وأنت ترى أن مدح سعيد كان يقرن دائما بذكر عساكره وجنوده ؛ ومدافعه وبنادقه ، ومناعة استحكاماته ومتانة قلاعه وحصونه ، مع أن البلاد لم تستفد شيئا من هذه القلاع ولا من تلك الحصون ، بل تكبدت خسائر مالية فادحة دون مقابل . ولو أن سعيدا شيد معاهد للعلم بدل تلك القلاع لأفاد البلاد فائدة محسوسة ، ولكنه أهمل نشر العلوم والمعارف ولم تفتح في عهده مدرسة واحدة . لذلك أمسك الشعراء عن الخوض في هذا الباب ، ولم يقرن اسم سعيد بنشر العلم والعرفان ، ولم يعن الرجل بتشييد المصانع لتزويد الجيش بما يلزمه من ملابس وسلاح ، بل كان يستورد من أوروبا كل ما يحتاج إليه ، فترتب على ذلك أن أموال البلاد أخذت تتسرب إلى الخارج ووفد على مصر كثير من الأوربيين الطامعين في الثراء وأضحى نفوذهم يزداد يوما بعد يوم .

وفي عصر سعيد انتهت حرب القرم التي نشبت بين الدولة العلية وروسيا . وكانت مصر قد اشتركت في هذه الحرب وأبلى الجنود المصريون بلاء حسناً في ميدان القتال . وقد تغنى الشعراء المصريون بهذا النصر . فمن ذلك قول عبد الله فكري :

لقد جاء نصر الله وانشرح القلب
لأن بفتح القرم هان لنا الصعب
وقد ذلت الأعداء في كل جانب
وضاق عليهم من فسيح الفضا رحب
بحرب تشيب الطفل من فرط هولها
يكاد يذوب الصخر والصارم العضب
إذا رعدت فيها المدافع أمطرت
كؤوس منون قصّرت دونها السحب

وقال الساعاتي :

أسيـــاف سطاء كم فللت وأرادت أن تعلو فعلت
والروس لما ذلت وعنت في مشهد حرب « سوستبل »

* * *

ثم قام سعيد برحلة إلى بلاد الحجاز . وكانت هذه الرحلة أشبه بحملة عسكرية إذ صحبه من الجند والحاشية نحو ألفي رجل من مشاة وفرسان ومدفعية وأتباع . وفي ذلك يقول الساعاتي مخاطباً سعيدا :

ملأت قلوب العرب رعباً فادروا
بعثت لهم بالكتب أم بالكتائب
تركتهم في أمرهم بين صادق
وآخر في تيه من الظن كاذب
تسـير لهم في بحر جيش عرمرم
يفيض بموج الخلق من كل جانب
إذا هتفوا باسم العزيز تزلزلت
جبـال عليها القل ضربة لازب
فكيف إذا يممت بالشهب أرضهم
وزاحمت ما في أفقهم بالنجائب
وجرد عليها الأسد في قصب القنا
ترى الأسد في الآجام مثل الثعالب

فعصر سعيد قد امتاز في بعض نواحيه بظهور الروح العسكري الوطني . وقد أثر هذا في الشعر على نحو ما بينا . وأقبل الشعراء في ذلك العصر على نظم الأناشيد العسكرية الحماسية ، فنظم رفاعة رافع الطهطاوي جملة أناشيد وطنية نذكر ما جاء في أحدها وهو :

يا جند مصر لكم فخار بين الورى عال المنـــار
كالشمس في وسط النهار صيت لكم في الكون سار
حادي السعود به حـــدا والطير صاح وغردا
بشرى لمصر قد بـــدا فيهـــا الفخار مؤبدا
بأميرها بحر النـــدا أعني السعيـــد محمداً

وحذا حذوه السيد صالح مجدي فأنشأ « القصائد الوطنيات » وكذلك فعل مصطفى سلامه النجاري شاعر سعيد الخاص ، ومحمود صفوت الساعاتي .

وفي عصر سعيد ظهرت في مصر بعض المخترعات الحديثة كالسفن البخارية والآلات الزراعية التي تدور بالبخار وآلات رفع الماء كما أن السكك الحديدية قد أخذت تحل شيئا فشيئا محل وسائل النقل القديمة . وكذلك انتشرت الأسلاك البرقية . فتغنى الشعراء بهذه المخترعات . قال السيد صالح مجدي يصف « وابور » سعيد :

أمديبة من فوق لج الماء تجري بأبهج منظر وبهاء

أم هذه إرم بدت وعمادها ... مسبوكة من فضة بيضاء
أم ذاك وابور المسرة مده ... صدر البرية أسعد السعداء
وحبا به النيل المبارك فازدهى ... ببديع بهجة شكله الحسناء
فكأن هذا الفلك في تنظيمه ... فلك به تسرى نجوم سماء
وكأنه في النهر عند مسيره ... برق يقصر عنه طرف الرائي
أو أنه ملك خطير جنده ... ملأ من الأمواج والأهواء
فعساكر الأمواج يرسلها على ... سفن البخار طليعة الأعداء

وهكذا استمر الشاعر يصف هذه السفينة ويشبهها تارة بالمدينة وتارة بالفلك ، وحيناً بالبرق وحيناً آخر بالملك .

وقال يذكر قنطرة بناها سعيد :

لله ما أبهى وأبهج قنطره ... سمح السعيد بها فزانت كوثره
ويصنعها سكك الحديد مذ يدها ... أضحى لواقر نفعها ما أقصره
وكأنها والموج تحت رصيفها ... ملك ينظم بالشهامة عسكره
وكتائب العربات تلثم أرضها ... وتجوز وهي بأمنها مستبشره

* * *

ثم جاء الخديو اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) وكان عهده حافلا بجلائل الأعمال ، فوجد الشعراء أمامهم مجال القول ذا سعة فقالوا . فلما حصل الخديو اسماعيل على نظام الوراثة الذي يقضي بحصر العرش في أكبر أبنائه (١٨٦٦) تسابق الشعراء إلى مدحه وتهنئته . وكان عباس الأول قد سعى من قبل في سبيل الحصول على هذا الحق فشل . وفي ذلك يقول عبد الله فكري :

ومهدت مد الله عمرك إرثه ... لأبنائك الطهر الجحاجحة الغر
وقبلك كم مدت لها نلت شأوه ... يد ثم ردت غير ظافرة الظفرة
وما كل من يسعى لأمر يبالغ ... مداه ولا كل الجوارح كالصقر

وقال صالح مجدي :

وشيد أركان الوراثة فازدهت ... بذلك أوطان وسرت أنامل

وقال من قصيدة أخرى :

وفي آلك الصيد الكماة تقررت ... وراثة تخليد رفعت لها ذكراً

وما تكاد تشيد مدرسة أو يبنى معهد أو يقام مصنع حتى يبادر الشعراء في تأريخ هذا شعراً . ومثال ذلك قول السيد صالح مجدي في أحد مصانع السكر التي أقامها اسماعيل :

وشاد بها فوريكة السكر التي ... بها الصدر اسماعيل دوالدولة اعتلى
سمت روضة الأنس الجمالية التي ... غدا ثغرها بالسوق للناس محسناً
فياسكر الأحواز ما زلت سامياً ... إلى أن تسامى عنك سكر مصرنا

واهتم اسماعيل بتحسين مدينة القاهرة فشيد كثيراً من القصور الفخمة ، وغرس الحدائق والبساتين ، ومهد الشوارع والميادين . قال السيد صالح مجدي : « اتفق أن عرضت لي في يوم من أيام المواسم الوقتية ، للتنزه بالمدينة المحروسة المعزية ، بقصد رياضة ذهن أعيته كثرة الأشغال ، وفهم أسقمه تراكم الأعمال ، فرأيت عن يميني وشمالي وخلفي وأمامي ، في جميع البقاع التي سميت إليها بأقدامي ، من التحسينات الفائقة المصرية والتنظيمات الرائقة المصرية ، ما توهمت به مع يقظتي أني في منام ، وأن ما يبدو لناظري إنما هو من قبيل الأحلام . ومكثت على هذه الوتيرة ، برهة من الزمن يسيرة ، أتقلب من الدهشة في كل واد ، وأرمق تلك التحسينات بعين الفؤاد . فلما أفقت مما أنا فيه بعد إمكان النظر ، ووقفت عقب ذلك على جلية الخبر ، نطق لساني بالثناء الجميل ، على ولي النعم عزيز مصر اسماعيل ، وقلت مصرحا بوصف بعض مخترعاته العجيبة .

ثغور المباني للعزيز بواسم ... وأيامه بيض الليالي مواسم
وأفنان أدواح التمدن غردت ... بمصر عليها للأنام حمائم
فأما المباني فهي في حسن نظمها ... بروج لأفلاك السماء تزاحم
وفي الأرض للابصار تبدو كواكب ... من الناز للبدر المنير تنادم
وأما تقاسيم المياه فتنفها ... نعيم وفيها للعباد مراحم
ومنها بساتين القصور تفتحت ... من الورد بعد الري فيها كمائم
وأما الميادين التي قد تجددت ... ولاحت عليها للفخار علائم
فأشرفها الساعي يذكر (محمد ... علي) الذي هابت لقاه الضراغم
ومنها التي في مابدين قصوره ... لها السعد طول الدهر في مصر خادم
ومنها التي في الأزبكية زانه ... بهاء وحلى تاجواه مناظم
وكيف وللتفريج فيه ملاعب ... بهن سرور البرية دائم
وقصر ولي العهد فيه كأنه ... بما حوله فوق الجزيرة قائم
وفيه سراديات وفيه حدائق ... وفيه لإحياء الفنون معالم

وهكذا استمر الشاعر يذكر القصور والبساتين ، والشوارع والطرقات والحدائق والمتنزهات ، وكل ما ظهر من معالم الحضارة وآثار العمران كالسكك الحديدية والترع والقناطر والكباري قال :

وأما أخاديد الحديد فإنها ... قد انتشرت في القطر منها مغانم
وراجت بها بعد الكساد تجارة ... لها العين في ظل الأمان مسالم
وقد فرست في جانبيها بحكمة ... لتوصيل أخبار البرايا قوائم

ثم انتقل من ذلك إلى ذكر دواوين الحكومة ومصالحها ومجلس الأحكام والمجلس المخصوص والطبيعة الأميرية ومصلحة التفتيش والدائرة السنية ودائرة الأمجال ومجلس النواب ، قال:

وعن مجلس النواب حدث فإنه منوط بما فيه لمصر القنائم

وذكر القانون القاضي بإلغاء السخرة فقال :

ولم يبق للتسخير في بر مصره وجود وزالت قبل ذاك مغارم

* * *

ولما ارتبكت الأحوال المالية في مصر أخذ الشعراء يتناولون الحالة السياسية بالنقد والتجريح . ومن هنا بدأ الشعر السياسي في الظهور . قال صالح مجدي معرضاً بالخديو :

رعى بلادكم في قعر هاوية من الديون على مرغوب جوسيار

وأنفق المال لا منّاً ولا كرما على بني وقواد وأشرار

والمرء يقنع في الدنيا بواحدة من النسا وهو لم يقنع بمليار

ويكتفي ببناء واحد وله قصور قصراً بأخشاب وأحجار

فاستيقظوا لا أقال الله مثرتكم من غفلة ألبستكم ملبس العار

ولا شك في أن الشاعر قد تحامل كثيراً وبعد عن الصواب . فبعد أن أشاد بالأعمال الجليلة التي قامت في عصر اسماعيل ، وبعد أن تغنى بمظاهر الحضارة والعمران التي ازدانت بها مصر في أيام ذلك العاهل العظيم ، رجع يردد بعض التهم التي اخترعها نفر من الأوربيين الذين قاوم إسماعيل نفوذهم الذي أرادوا فرضه على البلاد . ولسنا هنا بصدد مناقشة ما ورد في هذا الشعر وإظهار مافيه من رأي فاسد فقد أغنتنا كتب التاريخ عن ذلك .

* * *

وقد ترتب على ارتباك الأحوال المالية فساد كبير في الأداة الحكومية فانتشرت الرشوة وعمت الفوضى .

وقد ظهر أثر ذلك في الشعر ، فنظم محمود سامي البارودي قصيدة رائعة في ذم الحكام وحض الناس على طلب العدل في الأحكام . ومما جاء فيها قوله :

لكننا نغرض للشر في زمن أهل العقول به في طاعة الخول

قامت به من رجال السوء طائفة أدهى على النفس من بؤس على ثكل

من كل وغد يكاد الدست يدنمه بغضاً ويلفظه الديوان من ملل

ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت قواعد الملك حتى ظل في خلل

ومنها يخاطب المصريين ويحضهم على الثورة في وجه الظلم والاستبداد . قال :

قالكم لا تعاف الضيم أنفسكم ولا تزول غواشيكم من الكسل

ومنها :

فأي عار جلبتم بالخمول على ماشاده السيف من فخر على زحل

ومنها :

فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا شكالة الريث فالدنيا مع العجل

وقلدوا أمركم شهما أخا ثقة يكون رداً لكم في الحادث الجلل

ومنها :

وطالبوا بحقوق أصبحت غرضاً لكل منتزع سهماً ومختتل

ولا تخافوا نكالا فيه منشأكم فالموت في اليم لا يخشى من البلل

وقد حذا حذو البارودي كثير من شعراء ذلك العصر الذين كانوا من غير شك ينطقون بلسان الأمة ويعبرون عما يجول في خواطر أفراد الشعب .

« يتبع »

محمد سيد كيلاني

في أصـــول الأدب

للأستاذ أحمد حسن الزيات

كتاب في الأدب والنقد ؛ يمتاز بالبحث والعمق والتحليل الدقيق والرأي المبتكر .

من موضوعاته : الأدب وحظ العرب من تاريخه ، العوامل المؤثرة في الأدب ، النقد عند العرب وأسباب شغفهم فيه ، تاريخ حياة ألف ليلة وليلة ، أثر الثقافة العربية في العلم والعالم ، الرواية المسرحية والملحمة وتاريخهما وقواعدهما وأنواعها وكل ما يتصل بهما ، وهو بحث طريف يبلغ نصف الكتاب .

طبعة جديدة مزيدة في ٢٥٠ صفحة من القطع المتوسط وثمنه خمسة وعشرون قرشاً